جامعة الانبار
كلية القانون والعلوم السياسية
قسم العلوم السياسية
فكر سياسي غربي حديث
المرحلة الثالثة
مدرس المادة: أ.م.د. مؤيد جبير محمود

رواد الفكر السياسي الغربي في عصر النهضة

نيقولا مكيافيللي وفكرة الدولة الوضعية

حياته:

عاش نيقولا مكيافللي للمدة من ١٤٦٩ – ١٥٢٧ ، في ايطاليا ، وكانت خلافا لاسبانيا وفرنسا مجزأة الى عدة دول صغيرة في حالة صراع دائم. وكانت دول ميلانو والبندقية ونابولي وفلورنسا ودولة الفاتيكان تتآمر احداها ضد الأخرى وضد الدول الخارجية. وادى البابا دور البابا الايطالي المحلي في تلك اللعبة، وتميزت الحياة الاجتماعية بالانانية الجامحة. وكان ميكيافللي ينحدر من عائلة فلورنسية قديمة تنتمي الى فئة صغار النبلاء التي اصابها الافقار فوجدت نفسها في صفوف البرجوازية بشكل أو آخر، وكان أبوه محاميا ، فدرس القانون، ودرس الفلسفة والتاريخ . وعمل في الوظائف الحكومية فكان سكرتير القنصلية الثانية في جمهورية فلورنسا ، واستمر في هذا المنصب لغاية ١٥١٢، وتعد الحقبة الذي شغل فيها هذا المنصب من أصعب حقب التاريخ الايطالي بصورة عامة بسبب الحروب وتدهور الوضع الاقتصادي.

أفكاره:

– بحث مكيافللي في اساباب صعود القادة السياسين وسقوطهم، وأفضل وسائل البقاء في السلطة.

– دافع في كتابه الأمير عن الملكية المطلقة.

– وفي كتبه الاحاديث دافع عن الجمهورية.

– الكتابين عبرا عن وجهة نظر سياسي واقعي في الحكم وهو مايهم هو: النتائج السياسية.

–ونتيجة لحالة التجزأة والانانية الاجتماعية كان مكيافللي يهدف الى خلق دولة مستقرة موحدة قوية.

–نظرية مكيافللي السياسية كانت تنتمي الى عصر النهضة (السياسة الواقعية).

–الافتراض الاساسي في نظرية مكيافللي السياسية هو ان الانسان اناني بطبعه ، فليس هناك من حدود لرغبة الانسان في الاشياء والسلطة ، ولما كانت الموارد محدود، فإن الصراع يوجد ويستمر.

–وعلى هذا الاساس تأسست الدولة على حاجة الانسان للحماية من اعتداء الاخرين.، فمن دون فرض القانون تكون الفوضى.

– درس مكيافللي الدول جيدا، وميز بين الدول الفاسدة والصالحة

مقومات قيام الدولة الوضعية الموحدة القوية عند نيقولا ميكيافللي

زار ميكيافللي بحكم عمله الدبلوماسي الكثير من الدول الاوربية التي لاحظ في تلك الزيارات ان العديد منها، بلغ درجة ملحوظة من الوحدة والقوة، كما هو الحال الدول الفرنسية والاسبانية والالمانية والهولندية ، فاتجهت جهودة الى البحث في عوامل قوة هذه الدولة، ليؤسس على مقدمات هذا البحث ونتائجه مشروعة الخاص باقامة الدولة الوضعية القوية في ايطاليا والذي كان له عند مكيافللي وجهان هما:

١– الوجه الاول: واقع ايطاليا التي تعاني من عوامل الضعف.
٢– واقع الدولة الاوربية التي تتمتع بكل عوامل القوة.

وكان لمعالجة عوامل الضعف وتوفير عوامل القوة اللازمة لاقامة الدولة الايطالية الوضعية الموحدة القوية ، مقومان أساسيان في المشروع السياسي لمكيافللي هما:

المقوم الأول: الأمير: حيث يرى مكيافللي ان الدولة الوضعية الموحدة القومية ، لايمكن ان تقوم بدون وجود حاكم فرد يتمتع بخصائص مميزة، يتولى مهمة إقامة مثل هذه الدولة والحفاظ عليها.

الشروط الواجب توفرها بالأمير للقيام بمهمة مشروع اقامة مثل هذه الدولة:

- أن يكون انسان غير عادي أمير، وان يكون هذا الأمير بعيدا عن الفضائل ومعايير الخير، وقريبا من الرذائل ومعايير الشر.
- أن يكون الأمير مستعدا لممارسة القسوة والابتعاد عن الرحمة وجعل رعاياه في حالة خوف حتى يسهل عليه ذلك توحيدهم والحصول على ولائهم له.
- أن يكون هذا الامير مستعدا للتخلي عن عهوده وعدم الالتزام بها.
- ان يكون قادرا على التكيف مع الظروف، والتظاهر.

ان هذه الدولة يجب ان يحكمها شعار(الغاية تبرر الوسيلة) ولكنه شعار لاينطبق عنده على كل غاية ولا على كل فرد ، بل على غاية عظيمة واحدة ومشروعة هي غاية بناء الدولة الوضعية الموحدة القويةن وعلى فرد واحد هو من يبني هذا الدولة.

المقوم الثاني: الجيش: حيث يرى مكيافللي ان الدولة الوضعية لا يمكن ان تقوم بدون جيش جديد ومن نوع خاص (جيش وطني) ، ويبدو ان التجربة العملية هي التي أوحت لمكيافللي بفكرته؛ فقد كان الايطاليون ، وغالبية الدول الاوربية يديرون شؤونهم السياسية بأنفسهم ، أما حروبهم فقد كان تخوضها بدلا عنهم جيوش لمرتزقة مقابل أموال تدفع لهم. ولقد تاكدت لمكيافللي ضرورة تشكيل جيش وطني كمقوم أساس لقيام الدوة الوضعية، ولم يتزعزع ايمانه بضرورة تشكيل مثل هذا الجيش، ويظل يكد للايطاليين وينصحهم بضرورة الغاء نظام المرتزقة.

معوقات قيام الدولة الوضعية القوية الموحدة

إن حماس مكيافللي لقيام دولة ايطالية موحدة وقوية لم يمنعه من رؤية المعوقات التي تقف في طريق تحقيق هذا المشروع، وهي المعوقات التي شخصها في ضوء الواقع الفعلي لايطاليا في :

– **الكنيسة:** لقد كان مكيافللي انساناً متديناً، بقدر ما كان مفكرا يؤمن بأهمية الدين وضرورته لحياة الانسان الفردية والاجتماعية ، لكنه كان علمانيا لا يؤمن بأي دور سياسي للدين في الدولة، ونتيجة لهذا الوضع المركب، كان لمكيافللي موقفان مختلفان من الدين والكنيسة ، فبوصف انسانا مؤمنا ، كان للدين مكانة بارزة في الحياة الاجتماعية، وحتى في الحياة السياسية ، من حيث كونه دعامة للنظام الاجتماعي، لا من جيث مقدار صحته وصوابه، وانطلق من ذلك للدفاع عن الدور الايجابي والمهم للدين في سياسة الدولة. لكنه في الوقت نفسه ، وبوصفه مفكرا علمانيا هاجم المؤسسة الدينية (الكنيسة) التي رأى فيها السبب الرئيس في تدهور الروح الدينية، وبعد الناس عن الدين في ايطاليا. فالكنيسة لم تكن تصلح لضمان حصانة الروح الدينية من التدهور، وأفسدت الديانة المسيحية حين أفقدت الانسان ايمانه بها والثقة فيها. الأمر الذي دفع مكيافللي الى القول بضرورة عدم تدخل المؤسسة الدينية في السياسة لما في ذلك من اضرار في مشروع الدولة الوضعية.

– **الطبقة الاقطاعية:** حيث ذهب مكيافللي الى التأكيد على أن سلطة الحاكم والدولة الوضعية الموحدة القوية لن تكونا بأمان في ظل وجود منافسين دلخليين لهما، وأن أول وأخطر هؤلاء المنافسين هم النبلاء الاقطاعيون الذين رأى ضرورة تصفية سلطتهم كشرط أساس لقيام الدولة الوضعية الموحدة القوية وقيام سلطتها، فطالما كان هؤلاء يملكون قلاعا واتباعا ، فانهم من جهة يشكلون عائقا صلبا يحول دون قيام مثل هذه الدولة ، وهم يشكلون من جهة أخرى خطرا على الأمير نفسه خصوصا اذا ما تولى الحكم عن طريقهم او على الاقل بمساعدتهم، وهم من جهة ثالثة عوامل تضعف سلطة الأمير والدولة معا. وينصح مكيافللي الأمير بمعاملة هذه الطبقة بطريقتين:

أ- أن يجعل الامير هذه الطبقة معتمدة على عطفه ومدينة له بالولاء بشكل كامل.

ب- أن يميز الامير في هذه الطبقة بين النبلاء الذين يعاملهم كأصدقاء يحبهم ويكرمهم لارتباطهم به دون ان تكون لهم مصالح خاصة، والنبلاء الذين يعاملهم كأعداء حقيقين يبقيهم بعيدين عنه بسبب مصالحهم ومطامعهم الخاصة.

وبحكم هذه الرؤية اتخذ مكيافللي موقفا سلبيا من رجال الدين والنبلاء معا وذلك لسببين:

الأول: تقدير مكيافللي لأهمية العمل في تقدم المجتمع والدولة وقوتهما واستقرارهما، وكان رجال الدين والنبلاء في نظره كسالى.

الثاني: تقدير مكيافللي لخطر رجال الدين والنبلاء على اقامة الدولة الوضعية القوية الموحدة.

يحدد مكيافللي الخصائص المميزة للحياة السياسية في الدولة الوضعية :

١ -تعاقب أنظمة الحكم

يتمثل النظام الذي يحكم السياسة في نظام (الدورات التاريخية المتعاقبة لأنظمة الحكم) الذي يفترض وجود نوع من الحتمية القاضية بالسقوط والصعود الدوريين المتعاقبين للنظم السياسية ومراوحتها بين الانحطاط والنجاح، الخير والشر، ولم تكن هذه الفكرة جديدة بلا شك، حيث قال بها من قبل أفلاطون وأرسطو أولاً ثم المؤرخ الإغريقي بوليب (بوليبيوس) الذي استمد من هذين المفكرين فلسفته عن التاريخ ودورة الأنظمة والدساتير، واقتبسها مكيافيللي منه. وتفيد هذه الفكرة بأن كل نظام حكم يصعد ويرتقي في زمن قوته ونجاحه، ثم يتراجع وينحط بالضرورة في زمن ضعفه وفشله ليحل محله نظام حكم آخر.

ويلاحظ ميكافيللي تميز هذه الدورة التاريخية المتعاقبة لانظمة الحكم بميزتين:

الميزة الأولى : إن هذه الدورة التاريخية جزء طبيعي وحتمي من دورة الحياة التي لم يكتب فيها لما هو بشري أن يتوقف في نقطة ثابتة، فكل ماهو بشري ينتقل بالتعاقب من الكمال إلى النقص ومن النقص إلى الكمال ، ومن الخير إلى الشر ومن الشر إلى الخير.

الميزة الثانية : إن هذه الدورة التاريخية، تتحرك بفعل عوامل متعددة من بينها الثورة التي هي واحدة من الأدوات التي تحركها وتضمن أستمرارها.

٢ - أنواع أنظمة الحكم

أ – أنظمة الحكم الملكية والجمهورية

يميز ميكافيللي بين نظام الحكم الملكي ونظام الحكم الجمهوري إعتماداً على معيار عدد الحائزين على السلطة، إذ يكون الحكم ملكياً (أو إمارة) إذا كانت السلطة في يد شخص واحد وتنتقل منه إلى من يخلفه بالوراثة، ويكون الحكم جمهورياً إذا كانت السلطة في أيدي ممثلي الشعب المنتخبين الذين يحتلون مراكزهم مدة زمنية محددة باستثناء الرئيس الذي قد ينتخب مدى الحياة. وبقدر ما يعارض ميكافيللي النظام الملكي الوراثي، فإنه يفضل النظام الجمهوري، مؤكداً ضرورة إقتران وجوده بوجود مجلسين فيه، أحدهما للشيوخ والآخر للشعب، يُعهد لهما بتولي جميع الأعمال التشريعية اللازمة.

ب – نظام الحكم الشعبي

لقد كان الشعب بالنسبة لأغلب المفكرين الذين سبقوا ميكافيللي كماً مهملاً لا قيمة له ولا دور، ولكنه أصبح معه وبفضله قوة فاعلة ذات أهمية لأنه كان يرى:

- إن أهداف الشعب أنبل من أهداف النبلاء.
- إن ثورات الشعب الحر نادراً ما تسيء لحريته.
- إن محبة الشعب ضمان أكيد لاستمرار الأمير في منصبه.
- إن محبة الشعب خير وقاية وعلاج لمخاطر المؤامرات والدسائس التي تهدد الأمير. لذلك، يرى ميكافيللي أن على الأمير الاعتماد على الشعب في حكمه، مما يتطلب منه الحرص على صداقته ومحاولة كسب عطفه وتأييده.
- إن الشعب هو المادة البشرية الموثوقة التي يعتمد عليها الأمير في تشكيل الجيش الوطني التي يحافظ على وجود الدولة واستقرارها واستمرارها.

ولكن اهتمام ميكافيللي بالشعب كركيزة للحكم ، يتصف بصفتين:

– إن ميكافيللي عندما تحدث عن النظام المناسب للدولة الوضعية الموحدة القوية لم يفضل نظام الحكم الشعبي، بل فضل بدله نظام الحكم الجمهوري، ولم يطالب اجتماعياً إلا بنظام متوازن يسمح دستوره المعتدل للفقراء والاغنياء بمراقبة بعضهم مع بقاء كل منهم في مكانه في نظام الحكم. وتجلى موقف مكيافيللي الحقيقي من الشعب في غياب هذا الأخير عن اهتمامه عند معالجته لموضوع ممارسة الحكم، ولعل ذلك يرجع إلى عدم ثقته بالشعب نتيجة لعدم ثقته بالناس عامة، لأنهم في رأيه مجبولون على العدوانية والآذى ونكران المعروف وسرعة التلون والشره والبخل .. الخ.

– إن ميكافيللي عندما أهتم بالشعب، لا يشمل بإهتمامه الشعب كله وبالمعنى الحديث له، لأن الشعب عند ميكافيللي يتخذ معنى خاصاً يقتصر فيه على طبقة معينة من طبقاته هي الصناع والحرفيين والتجار الذين تسيرهم القوانين، أو من نستطيع تسميتهم البرجوازية بلغة العصر، أما الفلاحون وباقي الطبقات والفئات الاجتماعية الدنيا، فإنهم يدخلون عنده في عداد الرعاع الذين تسيرهم أهواءهم، ولا يمكن الخلط بين الشعب المسير بالقوانين وبين الرعاع.

المصادر:

١- عبد الرضا الطعان، علي عباس مراد، عامر حسن فياض، ط١،موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥.
٢- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر النهضة، ج١، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٣- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ط٢، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.
٤- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر الاصلاح الديني، ج٢، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٥- فرانسو شاتليه، تاريخ الايديولجيات-القرن ٧-١٩، ج٢، ترجمة انطون حمصي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٧.